منذ نحو ثلاثين الى اربعين الف سنة كان البحر المتوسط بطائع شاسعة وحراجاً وبحيرات وبواري . وكانت حيوانات فرس البري والموث والجاموس تجوسها قطعاناً وارجالاً . وكان انسان الكهف في ذلك العصر — كروماغنون — طويل القامة كبير الدماغ يصيدها بحيلته البارعة ويذبحها بأدوات مصنوعة من الصوّان ، فيصنع من جلودها أردية ، ويتخذ من لحمها غذاء ، ويدوّن انتصاراته عليها في رسوم ينقشها على جدران كهوفه

ثم بعد عشرين الف سنة ، تركت قبائل الازيل وصف حياتها ومعيشتها منقوشة على جدران الكهف المعروف بكهف « ماس دازيل » . كان الجاموس والموث قد ارتدّا الى الشمال ، فصرفت قبائل الازيل همها الى قنص قطعان الفرس البري المتناقصة وارجل الأياثل ، بالقوس والنشّاب . وكانوا يخبطون جلودها بأبر من العظم ، ويصيدون السمك في البحيرات والانهار بصنّارات من العظم ايضاً ، ويدخنون خلايا النحل لكي يفوزوا بعسلها . وكان انسان البحر المتوسط قد تعلّم قبل هذا العهد الملاحة فجعل يطفو على بحيرات مملكته الواسعة ، في زوارق مصنوعة من القصب ومغطاة بالجلود ، وكان قد تعلم اختلاف الفصول فجعل يقنص ويصيد ويبذر في الفصول الملائمة لذلك

ثم من نحو خمسة عشر الف سنة الى اثني عشر الف سنة انشقّ الحائل القائم عند احمدة هرقل (مضيق جبل طارق) والفاصل بين منطقة البحر المتوسط والمحيط الاطلنطي ، فتدفقت مياه المحيط شرقاً وغمرت البطائح التي كان الموث يجوسها ، والمراعي التي كان الفرس البري يعيش على عشبها . ومضت المياهُ في تدفقها وامتدادها ، حتى وقفت عند جبال الاطلس والبرانغادا واسناد الالب والبرينيه وسفوح الالبين وسلسلة طورس العظيمة . فنشأت عن ذلك شواطىء اليونان

---

(١) صدر من نحو شهرين كتاب انكليزي عنوانه « البحر الخطر : او البحر المتوسط ومستقبله » للكاتب السياسي الانكليزي جورج سلوكومب ونشرته دار هلشنصن . وقد استخلصنا هذا المقال من فصله الاول

السنة ، وقدم ايطاليا . غمرت المياه بلاداً تكثر فيها الآكام في منطقة محر ايجه فلم يبق من الآكام الا قممها وهي جزائر الارخيل وعجزت عن ان تغمر جبالاً اخرى عتدة من الغرب الى الشرق فكانت كورسيكا وسردينيا وصقلية ومالطة وكريت وقبرص . وكذلك حددت هذه الامواه المتدفقة جانباً حدود القارات الثلاث اوربا وافريقية واسيا

وقد لشواطىء هذا البحر المتوسط بين ثلاثة قارات ان تصبح منشأً ومقرًّا لطائفة من اشهر الحضارات في التاريخ المدوَّن ، زهت هنا وعظمت ثم دالت دولاتها ودرست معالمها ، ولم يبق منها الا بعض الآثار الحجية . ان اقدمها مختفل في جوف الزمان ، بدأت تستعرضه الكتابات المسمارية في الواح الطين في بلاد الرافدين وأحدثها كانه من بنات الامس الغابر على الرغم من التي سنة تفصلنا عنه

الى شواطىء هذا البحر المتوسط ، توافدت جماعات من الغزاة فأنشأت دولة اثر دولة في مصر ، وامبراطورية اثر امبراطورية في بابل ونينوى . فلما حكم حمورابي في بابل كان الفينيقيون الساميون ، قد رسخوا اقدامهم في صور وصيدا وغيرها من الثغور التجارية العظيمة على سواحل هذا البحر الشرقية . كانت سفنهم بأشرعتها القرمزية ، قد عرفته طولاً وعرضاً . بل كان الفينيقيون قد انشأوا مستعمرات في اسبانيا وبلاد الغال وعلى شاطىء افريقيا الشمالي أسسوا المدينة التي اصبحت فيما بعد عاصمة لامبراطورية قرطاجنة . ثم اجتازوا بأشرعتهم اعمدة هرقل واتجهوا شمالاً محاذين شواطىء اسبانيا وفرنسا الى سواحل بريطانيا . وقبل ان ينقل البحارة اليونانيون والجنود الرومانيون اصول الحضارة الى سواحل هذا البحر الغربية ، كان الفينيقيون قد باعوا سكان تلك السواحل عطوراً وخموراً وأقوبه ، لقاء نحاس أسبانيا وقصدير كورنوال (مقاطعة بريطانيا الجنوبية)[1]

وليس في التاريخ ، أدلة أقوى على زوال الامبراطوريات ، وعدم استقرار الحضارة ، من الادلة التي يستخرجها الباحث في تاريخ البحر المتوسط . لقد شهدت مياهُ هذا البحر ، الحضارة الايجية العظيمة وقد بلغت ذروتها وأوج مجدها في ميسيني وطروادة وفي كنسوس عاصمة الدولة المينوية في كريت حوالي ٢٥٠٠ ق . م . ثم جاء اليونان الآريون فدمّروها . وشهدت كذلك مفاخر الحضارة المصرية ترتفع وتنخفض ثم ترتفع وتنخفض ثانية . هوذا طوائف الغزاة من قلب آسيا ، تؤسس في بلاد الرافدين حضارة عظيمة الشأن ثم لا تلبث ان تبل بطائفة اخرى من الغزاة تطلبها على امرها ، فتدمّر ما بنت ثم تقيم على الانقاض حضارة جديدة . فالامبراطورية الاشورية العظيمة ، امتد سلطانها وعظمت شوكتها حتى استطاعت ان تطرد من مصر غزاتها الاثيوبيين ،

(١) حدثنا بعض من ابحث لنا مباحثهم في اثناء اصطيافه الماضي في انكلترا ، ان بعض النباتات الخاصة بمقاطعة كورنوال لا تزال تحمل في تضاعيفها اسماءها بعض الاصول الفينيقية

ولكن لم تلبث حتى سقطت امام جموع المادين والفرس. هوذا فجر بركليس وعصره يبلج على اثينا ولكن اسكندر ذي القرنين يشيد امبراطوريته على انقاض الجمهوريات اليونانية. لقد امتدت الامبراطوريات التي أسست على شواطىء هذا البحر الى المحيط الاطلنطي غرباً، والمحيط الهندي شرقاً. ان مرافئه كثيراً ما ازدحمت بالقائم والاسلاب من افريقية وآسيا. ومن موانيه المحتشدة، أقلعت السفن الاولى التي دارت حول رأس الرجاء الصالح، وشقت الطريق الى العالم الجديد. ان تأثير احدث حضاراته القديمة — اي الحضارة اليونانية والرومانية — لا يزال ماثلاً في علمنا وفننا وقانوننا الى يومنا هذا

ولا ننسى ان شواطىء هذا البحر شهدت قيام اعظم ديانتين في تاريخ العالم، ديانة السيد المسيح، وديانة النبي الكريم، بل كثيراً ما كانت سواحله ميداناً للنزاع بينهما، وكأن الزمان قد وقف عن السير، منتظراً ما يستقر عنه هذا النزاع

***

ان اعظم المعارك البحرية في التاريخ نشبت حتى أوائل القرن العشرين، في مياه البحر المتوسط أو في جوارها. ففي سنة ٤٨٠ ق. م. هزم اسطول زركسيس في خليج سلاميس على ايدي اليونان. وفي السنة التالية أجهز هؤلاء على البقية الباقية منه في ميكالي ولم تنقض اربع سنوات حتى تغلب اسطول الاثينيين على اليونان في صقلية. بل أن النزاع الطويل بين دويلات اليونان وهو المعروف باسم حرب البلوبونيس (٤٣١ — ٤٠٤ ق.م) كان في الغالب نزاعاً غرضه النزاع السيادة البحرية من الاسطول الاثيني. وما اهل نجم الاسكندر ذي القرنين، وبدأ سيره الظافر شرقاً حتى وجد في مناوأة اساطيل صور وصيداء، خصماً قوياً اخر زحفه على جيوش داريوس الفارسي. فلما بدأ النزاع بين قرطاجنة وروما، وقد كانتا دولتين بحريتين، احتشد التاريخ البحري للبحر المتوسط، بالحوادث الجسام والمعارك الكبيرة. ففي سنة ٣١ ق.م. نشبت اعظم معركة بحرية في العالم القديم هي معركة اكتيوم. وفي المياه نفسها، عند خليج ليبانتو نشبت اعظم معركة بحرية في العصور المتوسطة (معركة ليبانتو سنة ١٥٧١) وقد ظلت هذه المعركة البحرية اعظم المعارك البحرية في النهاية عشر قرناً من التاريخ المسيحي حتى كانت معركة الطرف الاغر في مستهل القرن التاسع عشر

فقد تبدد حلم نابليون بانشاء امبراطورية شرقية عظيمة كسحابة صيف، لانه لم يملك أعنة القوة البحرية في البحر المتوسط. ان انتصارات الاميرال نلسن بالهرة، حتمت قرناً كانت فيه مياه هذا البحر، مسرحاً للقرصان. ولم تر مياه البحر المتوسط معركة بحرية بعد ان نشبت معركة نافارين التي غلبت فيها اساطيل تركيا ومصر، سنة ١٨٢٧، الى ان كانت سنة ١٩١٤، اذ اقفلت الطرادان الالمانيان

غوبين . رسلو من اساطيل الخلفاء وحاولوا ان تتحدّى سيادتها عليه

ليس في العالم رقعة من الماء تشبه البحر المتوسط او تقاربهُ في عدد الشعوب المتصلة بتاريخه . ان فيه يمتلج اليوم ، كما كان يمتلج في العصور الغوابر ، عن العربي واليوناني ، اليهودي والمصري ، الايطالي والصقلي ، الاسباني والتركي والفرنسي . ان الرجال والنساء الذين يعيشون على سواحله يكادون يؤلفون طرازاً خاصاً من الناس ، لاشتراكهم في بيئة واحدة وغذاء متماثل واعمال ومصالح متشابهة ، ولاختلاط دمائهم بعضهم ببعض خلال عصور طويلة

***

جذب البحر المتوسط الغزاة اليه منذ فجر التاريخ ، القوط والفاندال من الشمال ، والهون من الشرق ، والغالين والفرنك والتورس من الغرب والشمال الاقصى . ولولا فترة قصيرة استولى فيها الانيويون على وادي النيل ، لقلنا ان الزنوج وحدهم دون سائر الشعوب امتنعوا عن الانقياد لبحره . منذ فجر التاريخ شقّت مياهَهُ مجاذيفُ شعوب استقرّت في تركيبها وطبيعة بيئتها بواعث الهجرة وحب المغامرة كالفينيقيين واليونان والقرطاجنيين . وقد كان الاتجاه في التجارة والهجرة حتى القرن الماضي ، الى الغرب . ولذلك كان مضيق جبل طارق ، وهو باب البحار القديم الى المحيط الاطلنطي ، هدفاً للمغامرين في ايام اليونان والرومان . فبلدان غال وايبيريا (اسبانيا) وسواحل افريقية من قرطاجنة الى المحيط ، اغرت الشعوب المزدحمة في شرق البحر ، بخصبها وغناها وسعتها

ثم ان مسالك التجارة والادارة والمواصلات الامبراطورية ، اتجهت في امبراطوريتي الاسكندر واغسطس شرقاً وغرباً ، ولكن في خلال القرون المظلمة التي تلت سقوط روما وبزنطة ، اتجه مركز السيادة في البحر المتوسط الى سواحله الشرقية . فبعدأن اتخذت الامبراطورية العثمانية القسطنطينية (الاستانة : استانبول) عاصمة لها ، جعلتها مركزاً ، سيرت منهُ الحملات فاكتسحت مصر وفارس والجزيرة وشمال افريقية الى المحيط الاطلنطي . فأصبحت تونس ، وهي قرطاجنة القديمة ، والجزائر وطنجة ولايات تابعة للسلاطين . وأصبح البحر بحر قرطان . وحاول الصليبيون بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ان يردّوا موجة التوسع العثماني المتجهة من الشرق الى الغرب ولكنهم عبثاً حاولوا . ولم ينحصر ضعف الدول المسيحية المفرقة المتعادية في البر ، بل شمل البحر كذلك . ففرسان مار يوحنا الاورشليمي ، خذلوا امام العثمانيين . واخلوا عكاء ثم رودس . ولم تبق قبرص في ايدي البندقيين الا بعد تسليم البندقية للعثمانيين بكثير مما يطلبون

وكذلك كانت الدولة العثمانية في ايام سليمان القانوني ، قوة بحرية لا تبارى من سواحل

سوريا الى شواطىء اسبانيا . وحاول الامبراطور شارل الخامس ان يخرج القرصان من تونس والجزائر ، فرتد خائباً من الجزائر بعد ان اقام في تونس حامية استعملت للخصم في ملك ابنه فيليب . أما جزيرة مالطة التي تراجع اليها فرسان مار يوحنا الاورشليمي ، فحوصرت حصاراً طويلاً . وكذلك ظلت سيادة العثمانيين البحرية على البحر المتوسط ، الى أواسط القرن السادس عشر ، عند ما نشبت معركة ليبانتو ، فغارت فيها أساطيل أسبانيا

***

ولو شاءت أسبانيا حينئذ او لو عرفت ان تغتنم الفرصة ، لكانت السيادة في البحر المتوسط لها . ولكن امراء البحر الاسبانيين ، كانوا شديدي الاشتغال ، بعد معركة ليبانتو ، بحماية السفن المحملة بكنوز جزائر الهند ، والسفن الناقلة للجنود الى هولندة الاسبانية ، والسفن التجارية الآتية من هولندا الى أسبانيا . وشغلهم علاوة على ذلك عزمهم على مناوأة بحارة الملكة اليزابث بعد ان وجدوا البحر مسرحاً لما في نفوسهم من حب المغامرة والتوسع . كذلك حال الاستعداد للحملة العظيمة التي رغب فيليب الثاني ملك أسبانيا في تجريدها على انكلترا ، دون التفاته الى البحر المتوسط . فاستغرقت كل تفكيره ، واستنفدت معظم ماله ، فكان البحر الذي يفصل شواطىء أسبانيا وايطاليا ، ويؤمن مواصلاته الى جنوى ونابولي وصقلية كان خارجاً عن نطاق تصوره الحربي ، او نطاق مطامعه الواسعة . لم يكفه ما ورثه عن والده من سيطرة وألقاب وضحى بثمار الانتصارات التي أحرزها أخوه «الدون جون» في البحر المتوسط ، لانه كان يطمح الى السيطرة سيطرة روحية وعسكرية على شمال اوربا

ولكن هزيمة اسطوله في تلك المعركة البحرية العظيمة عند شواطىء هولنده ، في سنة ١٥٨٨ عند ما اشتبك اسطوله بأسطول الملكة اليزابث الانكليزية في معركة الارمادا الاسبانية المشهورة ، بدد هذا الحلم الجميل . ثم تلا ذلك تدمير البقية الباقية من اسطوله على شواطىء اسكتلندا وايرلندا الجافية ، فأصبحت أعظم دولة بحرية في البحر المتوسط في ذلك العهد ، وهي لا تستطيع ان تشق عبابه بسفنها خشية القرصان ، مع ان ذلك البحر كان في قبضتها لو شاءت

ثم جاء قرنان على هذا البحر ، والسيادة فيه ليست لدولة من الدول . ذلك ان قوة الدولة العثمانية كانت قد ضعفت ومعها قوة البندقية ، وأصبح البحر مسرحاً للقرصان وظل كذلك الى خاتمة القرن الثامن عشر ، عند ما ظهر أثر القوة البحرية الانكليزية في تأمين مواصلاته ، ولكن الاسطول الانكليزي لم تتم له السيادة على هذا البحر ، الا بعد ما غلب نابوليون على أمره ، وقد ظلت له هذه السيادة الى عصرنا الحاضر ، ولولا تحدي ايطاليا له في أواخر سنة ١٩٣٥ لقلنا انها لا تزال له الى يومنا هذا